المرأة في فكر مالك بن نبي

أد. وسيلة خلفي

أستاذة التعليم العالي، جامعة «بن يوسف بن خدة» - الجزائر (1)

Khelfi66@yahoo.fr

تمهيد:

كانت التّصنيفات الفكرية ولا تزال محدِّدًا مُهمًّا لقراءة أيّ مُنتَج فكري، فضلاً عن الظّرفية الزّمانية والمكانيّة، لكن ذلك لم يمنع وجود تباينات مُهمّة بين من يمثّلون التّيار الفكري الواحد، وأحياناً جوهريّة، خصوصًا إزاء قضايا بعينها؛ إذ قد تتفّق المبادئ وتختلف المواقف، وتتّفق التّصورات الكبرى وتختلف الرُّؤى في التّفاصيل.

وعليه؛ فإذا أردنا صورةً عن الظّرف الذي ظهر فيه فكر مالك بن نبي، ثمّ برز وتميّز واكتسب خصوصيته؛ فلا بدّ من الرّجوع إلى أوضاع الجزائر خلال فترة الثّورة التّحريريّة وبُعَيْد الاستقلال، دون إغفال وضع العالم العربي والإسلامي وحالة الاستعمار، بل وحتّى أوضاع بلاد المستَعْمِر خلال تلك الفترة، هكذا حتّى يمكننا الإلمام بالمشهد بجميع تفاصيله، ووضع الفكر باعتباره مُنْتَجًا في سياقه التّاريخي.

وإذا كان التّاريخ السياسي مُهيمِنًا على كثير من القراءات؛ فإنّ التّاريخ العلمي والثّقافي، والأوضاع الاجتماعيّة لا تقلّ أهميّةً عنه، بل قد تكون أقوى تأثيرًا، وإذا تعلّق الأمر بالجزائر فلا بدّ من مرجعيّة الدكتور أبو القاسم سعد الله –رائد الكتابة في تاريخ الجزائر الثّقافي–، وقد استوقفتني عبارةٌ يصف فيها الشّرخ الثّقافي الذي وقع في المجتمع الجزائري، وذلك عند حديثه عن وضع مراكز التّعليم في الحقبة التي عاش فيها مالك بن نبي، باعتبارها حواضن الفكر والثّقافة، فيذكر بأنّها كانت ثلاثة أنواع: المدارس العربيّة الفرنسيّة، والمعاهد خارج الجزائر، والزّوايا والمدارس الحرّة داخل الجزائر، ثمّ يقول مُعلِّقاً: «ومن الطّبيعي أن يحدث التّقارب بين المركزيْن الثّاني والثّالث، ولكن قلّما وقع مع طلاّب المركز الأوّل»[1]، وظاهرٌ أنّ التّباعد بينهما أمرٌ تُبرّره نوعيّة التّحصيل العلمي، فضلاً عن العائق اللّغوي الذي يُربك عمليّة التّواصل عادةً حتى داخل الثّقافة والمرجعيّة الواحدة، وقد

(1) أبو القاسم سعد الله، ***تاريخ الجزائر الثقافي***، ط 2016م، دار الغرب الإسلامي، بيروت: ج8، ص13.

كان رجال جمعيّة العلماء المسلمين من خرّيجي المعاهد والزّوايا والجامعات الإسلاميّة في البلاد العربيّة، ومن ثمّة كانوا هم الرُّوَّاد المدافعين عن اللغة العربيّة والقائمين على أمر الإصلاح الدّيني، أمّا مالك بن نبيّ فكان خرّيج المدارس الفرنسيّة.

لكن رغم ذلك كان عَلَمًا مُتميّزاً من أعلام الفكر والثّقافة الإسلاميّة في الجزائر، خلال ثورة التّحرير وبعدها، شغل موقعًا متفرّدًا، لما كان يحمله من الثّقافة المزدوجة التي جمع فيها بين تخصّص علمي تقني، وقراءات في الجوانب الإنسانيّة والتّربويّة، وآراء في قضيّة نهضة العالم الإسلامي وسبل تحقيقها، فهذا التّنوع الذي تفرّد به مالك بن نبي من بين أعلام عصره؛ أهَّلَه لتناول موضوعات الفكر الإسلامي المتعلّقة بنهضة الأمّة بطريقة مختلفة عمّا كان سائدًا في عصره، ضمن رؤيته لحقيقة المشكلات التي كان العالم الإسلامي يواجهها، وسبل الخروج منها، وهو الذي عاش فترةً من حياته بفرنسا، ثم تنقّل بين البلدان العربيّة ورأى أوضاع المسلمين خلال الاستعمار وبعده.

أوّلاً: المحطّات المُهِمّة في حياة مالك بن نبي.

نشأ مالك بن نبيّ وترعرع في أسرة مسلمة محافظة، كان أبوه موظّفًا بالقضاء الإسلامي، حيث حُوّل بحكم وظيفته إلى ولاية تبسة، أين تابع مالك بن نبيّ دراسته القرآنيّة ودراسته الابتدائيّة بالمدرسة الفرنسيّة، حاول بعد حصوله على الإجازة متابعة دراسته بفرنسا إلاّ أنّ ظروفه الماديّة حالت دون ذلك[1].

عُيّن «عادلا» في محكمة آفلو بولايّة الأغواط، الوظيفة التي سعى لبلوغها وفرح بها، كما يقول رحمه الله: «وأخيرا وذات يوم استدعاني قاضي تبسّة ليبلغني تعييني، كِدْت أطير من الفرح»[2].

انتقل سنة 1930م إلى فرنسا لمواصلة دراسته، إلاّ أنّ طلبه للتّسجيل بمعهد اللّغات الشّرقيّة قوبل بالرّفض غير المبرّر، فسجّل في مدرسة التّقنيات الكهربائيّة، وتخرّج منها سنة 1935م، كان المطلوب منه في هذه المدرسة أن يُلمّ بمادة الرّياضيات، يذكر في مذكّراته أنّ عالَم الرّياضيات قد أحدث له تغييرًا عميقًا في النّظر وفي التّفكير، وكانت تلك الفترة هي نقطة التّغيير الجذري في اتجاهه الفكري[3]، أقام مالك بن نبي علاقات جيّدة مع الطّلبة المسلمين، ثمّ صار نائب رئيس جمعيّة الطلاب المسلمين لشمال إفريقيا.

---

(1) انظر ترجمته في: ***منشورات المجلس الإسلامي الأعلى***، بمناسبة الذكرى الثلاثين لوفاة المفكّر مالك بن نبي، ص10-11؛ نورة خالد السعد، ***التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي***، ط1، 1997م، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدّة.

(2) مالك بن نبي، ***مذكرات شاهد للقرن***، بإشراف: ندوة مالك بن نبي، ط، 2014م، دار الفكر، دمشق، ص171.

(3) المرجع نفسه، ص199 وما بعدها.

تزوّج من شابة فرنسيّة كما يقول: «كان يوم الجمعة من عام 1931م وقد تولّى الله الأمر، فهداني إلى زوجي وهداها هي، فسمّت نفسها خديجة، وأخذت على الفور زمام حياتي الماديّة في البيت»[1]، ويبدو أنّ هذه المرأة كان لها أثرٌ بارزٌ في حياة مالك بن نبي يقول عنها: «ومضت زوجي تتفنّن من أجل توفير جميع وسائل الرّاحة لي داخل البيت حتى من النّاحيّة الفكريّة، إذ كانت تأتي على الأشياء التّي أشاهدها في عالمي الجديد، بشهادة من يعرفها من داخلها ... وكم استفدت من هذه المدرسة؛ مدرسة المعايشة، إذ يصير التّلميذ أستاذًا أحيانًا، والأستاذ تلميذًا أحيانًا أخرى»[2].

ولم يكن له أولادٌ من زوجته الفرنسيّة، فتزوّج ثانيةً من جزائرية، نزولًا عند طلب عائلته، بعد أن حاول كما يقول تغيير رأيهم، إلا أنّه لم يستطع أمام إلحاحهم، خاصّةً بعد إخبار أخته الكبرى أنّ الوالدة قد أوصت في لحظاتها الأخيرة، بضرورة زواجه من أجل الإنجاب[3].

ثمّ كانت له أسرة، ورُزِقَ من زوجته الثانيّة الأولاد، إلا أنّه لم يتحدّث عنها، ولا نكاد نقف في كتابه «مذكّرات شاهد للقرن» على ما يدلّ على دورها في حياته، أو العلاقة التي كانت تجمعهما، كما فعل مع زوجته الأولى «خديجة» التي كثيرًا ما كان يشيد بذوقها وبراعتها فيما كانت تقوم به من أعمال، سواءً داخل البيت أو خارجه، وإن كانت المصادر لا تذكر لنا مصير هذا الزّواج بعد استقرار مالك بن نبي في آخر حياته بمصر ثم الجزائر.

بدأ مالك بن نبي رحلة التّأليف سنة 1947م حيث نشر كتابه «لبّيك»، وفي السّنة الموالية نشر كتابه «شروط النّهضة»، وهو التّأليف الذي ضمن شهرته بعد ذلك، وفي سنة 1954م نشر بباريس كتابه المشهور «دعوة الإسلام»، وتمّت دعوته سنة 1956م إلى الهند لتقديم كتابه «الأفرو-آسيوية»، ثمّ انتهى به المقام في القاهرة، حيث أسهم في التعريف بكفاح الشعب الجزائري، ونشر سنة 1957م دراسة بعنوان: «نجدة الجزائر»[4].

تنقّل مالك بن نبي بين سنتي 1957م و1962م بين القاهرة ولبنان، حيث قام بتنشيط ملتقى إعلامي للتكوين الإيديولوجي، موجّه للطلبة المسلمين[5]، عاد بعدها إلى الجزائر سنة 1963م وكان على صلة وثيقة بالرئيس الأسبق أحمد بن بله، حيث طلب منه فتح مركز التّوجيه الثّقافي، وكان مالك بن نبي في

(1) المرجع السابق، ص236.

(2) المرجع نفسه، ص240-421.

(3) المرجع نفسه، ص340.

(4) انظر: نورة خالد السعد، ***التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي***، ص 26-27.

(5) المرجع نفسه، ص28.

هذه الفترة قد اشتغل بتنظيم ندوات للطلبة ببيته، يعرض فيها فكره ونظرته في قضايا السّاحة الفكريّة الجزائريّة والعربيّة.

عُيّن سنة 1964م مديرًا للتّعليم العالي، وكان يشتغل مع ذلك بالكتابة بالتّعاون مع الصّحافة الجزائريّة ومجلة الثّورة الإفريقيّة التي كان تنشر مقالاته الأسبوعيّة.

أسَّس مُلتقيات الفكر الإسلامي، ولم يتوقّف عن تنشيط المحاضرات بالجزائر والعالم العربي، وفي عام 1972م أدّى فريضة الحجّ، وتوقّف في طريق عودته في دمشق، وألقى فيها محاضرته التي اعتُبرت فيما بعد وصيته الأخيرة، وحملت عنوان: «دور المسلم في الثّلث الأخير من القرن العشرين»[1].

في سنة 1973م أثناء رحلته إلى مدينة «الأغواط» لإلقاء محاضرة اشتدّ به المرض، سافر بعدها إلى باريس من أجل إجراء عمليّة جراحيّة، لكنّ الطبيب نصحه بعد إتمام العمليّة بالعودة إلى البلاد لاستعصاء حالته، فعاد إلى الجزائر، وبعد ثمانية أيام توفّي -رحمه الله- يوم الأربعاء 31 أكتوبر سنة 1973م[2].

ثانياً: مؤلّفات مالك بن نبي.

مرّت حياة مالك بن نبيّ مُؤلِّفًا بثلاثة مراحل، عكست خطّه الفكري من النّشأة إلى الاستقرار، مرورا بمختلف محطّات حياته العلميّة والفكريّة داخل الجزائر وخارجها؛ إذْ كان لكلّ مرحلة موضوعاتها وقضاياها، وإنْ تشابهت أوضاع العالم الإسلامي في كثير من جوانبها فترةَ الاستعمار وسطوة الثّقافة الغربية، ومع ذلك لم يغفل مالك بن نبي الخصوصيات التي عاشها الجزائريون في تلك الفترة، وهذه المراحل كالآتي:

– المرحلة الأولى: كان فيها متنقّلاً بين الجزائر وباريس والممتدّة من سنة 1930م إلى سنة 1956م، كتب فيها: الظاهرة القرآنية، لبّيك (رواية)، شروط النّهضة، وجهة العالم الإسلامي.

– المرحلة الثانية: استقرّ فيها بمصر من سنة 1956م إلى سنة 1963م، كتب فيها: فكرة الإفريقية الآسيوية، نداء الجزائر، مشكلة الثقافة، الصّراع الفكري في البلاد المستعمرة، في البناء الجديد، فكرة كومنولث إسلامي، تأملات في المجتمع العربي، في مهب المعركة، ميلاد مجتمع.

– المرحلة الثالثة: استقرّ فيها بالجزائر بعد الاستقلال من سنة 1963م إلى 1973م، وصدر له فيها: آفاق جزائريّة، مذكّرات شاهد للقرن، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، مشكلة

(1) المحاضرة منشورة بهذا العنوان في كتيب صغير، دار الفكر، ط1، سنة 2002.

(2) انظر: ***التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي***، ص29.

الأفكار في العالم الإسلامي، المسلم في عالم الاقتصاد، دور المسلم ورسالته في الثّلث الأخير من القرن العشرين، بين الرّشاد والتّيه.

هذا فضلاً عمّا يزيد عن العشرين مقالًا في مختلف المجلاّت داخل الجزائر وخارجها، عكست مع مجموع كتبه فكر مالك بن نبي، وتفاعله مع قضايا عصره، وواقع الأمّة الإسلاميّة، لتصبح فيما بعد موضوعات لعشرات الرسائل الجامعية والأبحاث والملتقيات العلمية، فضلاً عن برامج ونشاطات مراكز البحوث والدّراسات اليوم، التي اتّخذت من تراث مالك بن بني قاعدةً تستلهم منها الرّؤى والتصوّرات لمشكلات عالمنا العربي وسبل النّهوض بها.

كتب مالك بن نبي باللّغة التي أتقنها «الفرنسية»، ثمّ كتب بالعربية بعد ذلك، وقد ترجم له الأستاذ عبد الصّبور شاهين أغلب كتبه، وكانت بعض هذه الإصدارات إمّا محاضرات ألقاها في مراحل تنقّله بين دمشق ولبنان ومصر، ثم جمُعت كما في كتابه «تأمّلات»، وكتابه «القضايا الكبرى»، وإمّا مقالات في جريدة الثّورة الإفريقيّة، حيث قام بترجمتها إلى العربيّة بنفسه، ثم بوّبها وحدّد فصولها، كما يذكر ذلك الأستاذ عمر مسقاوي المفوّض من مالك بن نبي قانونيًا بتولّي نشر مؤلّفاته، وهذا ما قام به مشكورًا من خلال ندوة مالك بن نبي، حيث عهِد إلى دار الفكر بنشر كلّ كتبه [1].

ثالثا: المعالم الأساسيّة لتناول موضوع المرأة في فكر مالك بن نبي.

يُدرِك من يقرأ لمالك بن نبي وإن لم يعرف سلفًا تفاصيل الحقبة التّاريخيّة التي عاش فيها؛ أنّه مفكّرٌ مسلمٌ يعيش في مجتمع مُتَخلِّف، مشغولٌ بقضيّة جوهريّة في كلّ كتاباته؛ هي كيفيّة نهضة العالم الإسلامي، يُعبِّر عن اللّحظة التّاريخيّة نفسِها التي كتب فيه شكيب أرسلان «لماذا تأخّر المسلمون وتقدّم غيرهم؟»، واللّحظة نفسها التي كتب فيها الشّيخ أبو الحسن النّدوي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» على الرّغم من التّباعد بين خلفيّة السّؤالين، وفي سبيل الوصول إلى تحقيق النّهضة؛ تناول مالك بن نبي جملةً من القضايا والإشكالات، بسط من خلالها أفكاره وحدّد نظرته، وسط الجوّ الثّقافي والفكري الذي كان سائدًا يومئذ، ففي كتاباته ما يدلّ على أنّه كان مُطَّلعاً على تيارات الإصلاح في عصره، بل لقد تناول بعضها بالنّقد، كحركة الإمام جمال الدّين الأفغاني، والحركة السّلفية في الخليج، والحركات الصّوفية، وممّا جاء في ذلك قوله عن الإمام الأفغاني وتلميذه الشيخ محمّد عبده: «لقد تناول «الأفغانيُّ» المشكلة بعقله القَبَلي العفوي من

(1) انظر المقدمة من أي كتاب له نشر، دار الفكر، وفيها النص كاملا الذي يعهد فيه بن نبي، بهذه المسؤولية للأستاذ (عمر مسقاوي).

الزاوية السياسية، بينما تناول «عبده» قضيّة الإصلاح كمشكلة اجتماعيّة، وقد كان يحمل ثقافة فلاحية مُشبَعة بالغريزة الجماعية، وكذا التعليم الأزهري المتمسك بالدّين، الجامد على أصوله»[1].

يلحظ القارئ لكتابات مالك بن نبي أنّه ليس من أولئك الذين يأسرهم السّائد من الأفكار، لمجرّد أنّه السّائد المعروف، أو لأنّ شخصًا مرموقًا من العلماء قال به، بل يجد فِكرًا حُرًّا، ومُفكِّرًا مُستقلاً يعرض أفكاره، ويُدلّل عليها من العقل والنّقل، يُجِيل النّظر والفكر، ويحلّل المشكلات بأدواته المعرفية، يعرض آراءه بثقة ظاهرة، وبلغة تقريرية لا يشوبها التردّد، يبتعد تمامًا عن نمط الكتابات التي يحاول أصحابُها –بدعوى الجمع والتوليف– مُجاملة كلّ الاتجاهات الفكرية المختلفة طلباً لوُدِّ الجميع، فيخسرون هويتهم الفكرية وانتمائهم الثقافي.

كان مالك بن نبي يكتب بتميّز واستقلال، ظهر في الأفكار الأساسية التي طبعت كلّ إنتاجه، والتي تُشكِّلُ بدورها المعالم الموجّهة لمختلف الموضوعات التي تَحدَّث عنها، ومنها موضوع المرأة؛ إذْ لا ينبغي أن يُفصل ولا أن يُفهم بعيدًا عن بساط تلك الأفكار الأساسيّة، ولعل أهمّها في سياق الموضوع ما يأتي:

1/ أنّ التّخلف الحقيقي هو التّخلف الفكري لا المادّي.

يرى مالك بن نبي أنّ التّخلف هو العجز عن توليد الأفكار وليس عدم امتلاك الوسائل الماديّة، كما يظنّ كثيرٌ من النّاس حتّى أيّامنا هذه، بل لقد طغى ذلك وزاد مع غلبة المادة وتسارع التطوّر التكنولوجي، حيث تقدّمت المعرفة التقنية، وتراجعت الإنسانية، يقول: «المجتمع المتخلِّف ليس موسومًا حتمًا بنقص في الوسائل الماديّة «الأشياء» وإنّما بافتقاره للأفكار»[2].

ومن هنا يصف المجتمعات المسلّمة بالتخلّف؛ لأنّها لم تعد قادرةً على التصدّي لمشكلاتها بأفكار جديدة، بل حتى عندما تجد الحاجة إلى الأفكار فإنّها تستوردها جاهزة، ولا تُكلّف نفسها عناء التفكير المُبدِع المُنتج للأفكار من داخل ثقافتها، كيف يمكن عندئذ للفكر أن يتفاعل مع واقعه وأن يحيى وينتعش؟ كما تساءل مالك بن نبي: «كيف نبدأ إحياء عالم الثقافة المحشو بالأفكار الميّتة، بأفكار قاتلة مستورَدَة من حضارة أخرى»[3]، ربّما يبدو هذا الكلام اليوم معلومًا لكثيرين، وقد ظهرت للعيان نكسات مجتمعاتنا العربيّة المسلمة، بعد سنين من المحاكاة لأفكار الغرب، وأفكاره الميّتَة على الخصوص كما يصفها مالك بن نبي، وقد

(1) مالك بن نبي، ***وجهة العالم الإسلامي***، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط 1986، دار الفكر، دمشق، ص46.

(2) مالك بن نبي، ***مشكلة الأفكار***، ترجمة: بسام بركة وأحمد شعبو، ط1، 2000م، دار الفكر، دمشق، ص36.

(3) المرجع نفسه، ص75.

بات واضحًا أنّ تُربتَها لا تناسب ما غرس فيها من أفكار دخيلة، لكنّ مالك بن نبي قال هذا الكلام في وقت كانت أغلب النّخبة المتعلّمة مُنبهرةً بالحضارة الغربيّة.

إنّه بُعد النّظر، واستقلال الفكر، والإيمان الجازم بالمعتقَد، دون انخداعٍ بالواقع المزَيّف، إنّ التخلّف بمعنى القحط في الأفكار والعجز عن توليدها من داخل حضارتنا، والاعتداد بالمادّيات وعالم الأشياء كما يسمّيه، محدِّدٌ أساسيٌّ في تناول موضوع المرأة عند مالك بن نبي، وقد بات واضحًا اليوم كذلك للعيان كيف صار مجالًا خِصبًا لكلّ أفكار المجتمعات الغربيّة حول ما يعتبرونه تحرُّراً ومساواةً ونضالًا وإثباتاً للذّات، وتقدّمًا وتطوّرًا، وخروجًا من ربقة الماضي المتخلّف، وكيف تكاثرت الاحتياجات الماديّة للمرأة المعاصرة كالورم السّرطاني، حتى لم يعد من السّهل الفصل بين المرأة وعالم السِّلع والمبيعات، فغرقت المرأة المعاصرة في عالم الأشياء إلى أكثر من قامتها، حتى لم يكد يُرى على السّطح إلاّ السِّلع الموَجَّهَة إليها، أمّا فكر المرأة وروحها فلا تزال مطمورةً تحت رُكام الأشياء.

2/ أنّ الدّين يبني الفِكرة الدّينية ولا يُغَيّر المظهر فحسب.

يرى مالك بن نبي أنّ كثيرًا من أعلام عصره لم يعثروا على الجواب الصّحيح لسؤال: لماذا تأخّر المسلمون؟ وأين سبب المشكلة؟ ففي حين يُلقِي بعضهم بالمسؤولية كلّها على الاستعمار، باحثًا عن سبب التأخّر من خارج الأمّة، يرى مالك بن نبي أنّ الدّاء قد استفحل داخل بنية المجتمع المسلم، وأنّ هذا الدّاخل هو الذي يجب أن يكون مجال البحث عن مشكلات التخلّف، والوقوف على أسبابها، وهذا الذي عبّر عنه بحالة القابلية للاستعمار، أمّا الاستعمار نفسه فهو نتيجة لمقدّمات موجودة سلفاً في تفكير المسلمين أنفسهم.

إذن؛ إنّه الفكر وليس إلاّ الفكر، كأنّ مالك بن نبي يقول لنا: «قل لي كيف تفكّر أقول لك هل أنت مُتخلّف»، ولمّا كان الدّين هو أبرز مكوّنات مجتمعاتنا العربية؛ نظر مالك بن نبي إلى ما سمّاه «الفكرة الدينية»، ورأى أنّها إذا لم تغيّر من حال الفرد إلى الأحسن، فلا تعدو أن تكون طقوسًا لا روح فيها؛ النّاس يُصلّون ويصومون ويحجّون ويؤدّون ما عليهم من الشّعائر الدّينية، لكن أين أثر كلّ هذا في حياتهم؟ هل يمكن أن يكون الدّين عظيمًا كاملًا ويكون أتباعُه ضعفاء مخذولين ثمّ يظلّون على ذلك مع تمسّكهم بدينهم؟ ألا ينبغي أن يبني الإسلام في أتباعه فكرًا دينيًّا مُتّقِدًا نيّرًا، تظهر آثاره في مختلف مناحي حياتهم؟ وهو الدّين الذي جاء بالعقيدة الصّحيحة في الله والكون والحياة، وبتشريع لم يدع صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ قال فيها بحكم أو مبدأ أو توجيه، يقول مالك بن نبي مُدلِّلا على هذا: «إنّ الفكرة الدينية تُحدث تغييرها حتّى في سَمْت الفرد ومظاهره، حتّى تغيّر في نفسه، وبذلك يكون لمنهج التّربية الاجتماعية أثره في تجميل ملامح الفرد، فإذا كان المسلم مُحاطًا بكلّ مظاهر الابتذال والقذارة الحسيّة والمعنويّة، فأين حقيقة الإسلام في حياته؟».

من هنا وجد مالك بن نبي نفسه في مُواجهة العلماء والفقهاء؛ فهم من يُفترض فيهم بناء التفكير الدّيني السّليم لدى العامّة من النّاس، ووصل من منطلق نظرته في حقيقة الفكرة الدّينيّة إلى أنّهم إن لم تشغلهم هذه الفكرة أساسًا، فهذا يعني أنّهم يحومون حول أوهامٍ يظنّونها مشكلات وهي ليست كذلك؛ ويرى أنّ التّخبط في المشكلات الوهميّة بُعدٌ عن الصّراط المستقيم، وسلوكٌ لمتاهات مُلتَويّة لا تمتُّ لمشاكل المجتمع الحقيقيّة بصِلة، وهو في الواقع مضيعةٌ للوقت والجهد معًا، ويُشبّه هذا التّيه بما وقع لأئمة الفقه الإسلامي في التّاريخ، عندما تركوا المشاكل الحقيقيّة في حياة النّاس وانشغلوا بقضايا كلاميّة، هي في الواقع مشكلات خياليّة، كالبحث في جنس الملائكة، أو قضايا فقهيّة شاذة مثل التّوضؤ من وطء البهيمة[1].

إنّ ما يصفه بالمشاكل الوهميّة؛ كانت في نظره إعراضًا عن المقصود الأوّل من عمل العلماء وهو بناء الفكر الدّيني السّليم.

ولا يخفى أهميّة هذا المحدّد في تناول موضوع المرأة، وقد تحوّل الموضوع برمّته لدى كثيرين اليوم إلى مجموعة من الأحكام الفقهيّة العمليّة مفصولة العرى عن الفكر الدّيني، وقد صار حكم تغطية وجه المرأة وقدمها، وحكم سماع صوتها، وكلّ ما يتعلّق بمظهرها الخارجي؛ أهمّ من فِكرها الدّيني، حتّى صرنا نرى نساءً مسلمات ملتزمات بجميع الأحكام العمليّة التي تحقّق قدرًا كبيرًا من مظاهر الالتزام الدّيني، وفي الوقت نفسه حاملات لرؤى المدارس الفكرية الغربية في جوانب نفسية واجتماعية وتربوية كثيرة، ولا قدرة لهنّ على مقارعة الفِكر الدَّخيل بفِكر إسلامي أصيل، فلم تُغيّر «الفكرة الدّينية» إلاّ مظاهرهنّ.

3/ أنّ التّغيير الصّحيح أساسُه الفَرد ثمّ شبكة العلاقات الاجتماعيّة.

لم تكن رؤية مالك بن نبي لقضيّة نهضة العالم الإسلامي مُجرّد مُقترحات عملية، كما جاء في كتابه «فكرة كومنولث إسلامي» و«فكرة الإفريقية الأسيوية»، لكنه تناول قضية النهضة أيضًا في بُعدها النّظري الفلسفي؛ باعتباره الأصل والأساس الأوّل الذي يقوم عليه كلّ مقترح عملي، فأكّد على أنّ «النّفس هي المُحرّك الجوهري للتّاريخ الإنساني»[2]، «وأنّ النّماذج الإيديولوجيّة من عالم الأفكار يتمُّ تنفيذها بوسائل عالم الأشياء من أجل غاية يحدّدها عالم الأشخاص»[3] فعالم الأشخاص، أي الإنسان هو المحرّك الأول لعمليّة النّهوض، أمّا عالمَا الأفكار والأشياء، فهي تابعة وخاضعة للإنسان، ولذلك نجده في رسالته الأخيرة يختصر مشروع النّهوض برمّته في جملة واحدة عندما قال: «رسالة المسلم، إنقاذ نفسه وإنقاذ الآخرين، وله أن يقوم

(1) مالك بن نبي، ***ميلاد مجتمع***، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط 2008م، دار الفكر، دمشق، ص44.

(2) المرجع نفسه، ص26.

(3) المرجع نفسه، ص28.

بدوره بفضل إسلامه فقط، ولو كان أعزلاً فقيرًا»[1]، فالإنسان المسلم هو المحرّك الأساس لكلّ نهضة، ومن الإسلام يستقي أفكاره الدّينية وتصوّراته، حتّى إذا حصَّل الفكرة الدّينية انطلق بعدها إلى عالم الأشياء يتصرّف فيه بمقتضى فِكره.

وعليه يمكننا القول: إنّ تأكيد مالك بن نبي على فكرة الفاعليّة، وأنّ الأفكار ما لم توضع على محكّ العمل؛ فلا تعدو أن تكون خيالات، لا يعني بحال عدم اعتداده بالجانب النظري والبعد الفلسفي، هذا الذي يدور أساسًا حول الإنسان بما هو إنسان، تصوّراته ونظرته وفكره، ومن أجل تحقيق ذلك؛ حدّد مالك بن نبي ثلاثة أنواع من المعرفة على المسلم تحصيلها، وهي: أن يعرف المسلم نفسه بدون مغالطة، لا مغالطة تضخيم الذّات ولا مغالطة تهوينها، وأن يعرف الآخرين دون كبرياء وتعالٍ بل بأخوّة، وهذه نتيجة سابقتها؛ إذ تضخيم الذّات يورث التكبّر على الآخرين، وتهوينها يورث عدم الثقة في التواصل مع الآخرين، ثمّ أن يُعرّف الآخرين بنفسه[2]، فإذا أحسن تعريف الغير بنفسه، أي بدينه وفكره وثقافته يكون قد حقّق أصل التعارف الذي حثّ عليه القرآن، من خلال شبكة العلاقات التي تنشأ بفعل التواصل مع الآخرين.

لقد جسّد مالك بن نبي بهذا الكلام ما كان قد قرّره في موضع آخر عندما قال: «إنّ شبكة العلاقات هي العمل التّاريخي الأوّل الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده ... فالعمل الأول في طريق التّغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغيّر الفرد من كونه فردًا "Individu" إلى أن يصبح شخصًا "Personne" وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنّوع، إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع»[3].

وعليه فالبناء المعرفي الذي ينتقل بالإنسان من معرفة نفسه إلى معرفة الآخرين، إلى معرفة نسج العلاقات في شكل بنية اجتماعية؛ هي اللّبنة الأولى في كلّ تغيير مأمول.

وعليه نستطيع القول: إنَّ الإنسان فردًا وجماعةً كان هو الموضوع الذي تنتهي إليه كلّ أفكار مالك بن نبي عن التخلّف والاستعمار والثقافة والأفكار والنهضة واللغة، فقد كان –رحمه الله– يرفض النّظرة التّجزيئيّة لقضايا المسلم المعاصر، ولا يرى أنّ حلّ كلّ مشكلة على حدة أمرٌ ممكنٌ أو حاسمٌ، وإنّما الحلّ الحقيقي هو الذي يتناول جذور الإشكاليّة الأساسيّة ثم يسري إلى شبكة المشكلات الأخرى.

إنّ هذا المحدّد المهمّ في تناول قضيّة المرأة عند مالك بن نبي يؤكّد أمرًا غاية في الأهميّة، وهو أنّ فصل القضيّة عن قضايا الأمّة والمجتمع والأسرة قبل ذلك، وادّعاء أنّ للمرأة مشكلات مستقلّة ينبغي أن تكون لها

(1) مالك بن نبي، ***رسالة المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين***، ط 2010، دار الفكر، دمشق، ص59-60.
(2) نفس المرجع، ص60.
(3) مالك بن نبي، ***ميلاد مجتمع***، ص31.

حلول كذلك مستقلّة؛ غير صحيح، وفيه مغالطة تأباها طبيعة الإنسان في شبكة العلاقات الاجتماعية، هذا فضلاً عن أنّ التغيير الصحيح لواقع المرأة لا بدّ أن يدور حول المرأة ذاتها، إنسانًا قبل أن تكون أنثى، تغيير ينفذ إلى أفكارها وتصوّراتها ورؤيتها لنفسها وللآخرين، باعتبارها مُسلمةً تعيش واقعًا معيّنًا له ظرفه الثقافي ومشكلاته الخاصّة.

5/ أنّ الشرخ اللغوي والثقافي في الجزائر مشكلٌ في طريق النهوض.

وجد مالك بن نبي تنزيلًا لفكرة التغيير الصحيح على واقع الجزائريين؛ أنّ أكبر مشكلة تواجهه هي الشّرخ الظاهر والفصام القائم بين فئتين من الجزائريين، ولعلّ ذلك لا يزال مستمرًّا إلى يومنا هذا، فقال: «في الجزائر مجتمعين متراكبين، أحدهما يمثّل البلاد في وجهها التقليدي والتّاريخي، والثّاني يريد صنع تاريخ ابتداءً من الصفر، فالأفكار المطبوعة للأوّلين، والأفكار الموضوعة للآخرين؛ لا تستطيع التعايش في عالم ثقافي واحد»[1].

اعتبر مالك بن نبي بعض حاملي الثقافة العربية والدينية؛ أصحاب أفكار مطبوعة، أي منسوخة عن صورتها الأصلية، وهي ما كان عليه السّلف الصّالح من هذه الأمّة، دون وجود اتّصال حقيقيّ يُفعِّل الفكرة الإسلاميّة في واقع الجزائريين؛ لأنّه كان مؤمنًا بأنّ «فكرةً أصيلةً لا يعني ذلك فعّاليتها الدّائمة، وفكرةٌ فعّالةٌ ليست بالضّرورة صحيحة ... فأفكار أوروبا سمحت لها بالسّيطرة على العالم بفعّاليتها لا بفكرتها الأصيلة»[2]، أمّا أصحاب الثقافة الفرنسية واللغة كذلك، فهم بعيدون عن روح الحضارة العملية، لأنّهم يريدون قطيعةً كاملةً مع ماضي الأمة، ورسم بداية جديدة صفْرية لا تثمّن أيّ مُكتَسَب قديم، وهذا عبثٌ لم يحصل في تاريخ أمّة من الأمم.

إذن وتبعًا لهذا المحدّد الخاصّ بالجزائريين؛ فإنّ تناول موضوع المرأة الجزائريّة عند مالك بن نبي؛ لا بدّ أن يظهر فيه بجلاء مشكلة الشّرخ الثّقافي واللّغوي الذي لا نزال نعيش تداعياته إلى اليوم، بين اتجاه نسائي فرنسي اللّسان والثقافة من ذوي الأفكار الموضوعة يسعى جاهدًا لمحاكاة نموذج المرأة الأوربيّة في طبعتها الفرنسية خصوصًا، ويريد استنبات زرع «تيار النّسويّة» "le féminisme" بجميع أبعاده الإيديولوجية، واتّجاه في المقابل مُعرَّبٌ اللّسان والثّقافة، وهو أكثر انسجامًا مع عموم المجتمع الجزائري العربي المسلم، لكنّه لا يخلو هو الآخر من ذوي الأفكار المطبوعة كما سمّاها، إذ كثيرًا ما نجد صورة التّدين ومظاهره لكن بلا روح ولا تفعيل لها في الواقع الجزائري.

---

(1) مالك بن نبي، ***مشكلة الأفكار***، ص141.

(2) المرجع نفسه، ص101.

فلعلّ هذه المحدّدات الخمسة هي المَعالم التي يمكننا أن نرسم ضمنه اتّجاه قضيّة المرأة في فكر مالك بن نبي، كما سنعرض لتفاصيلها فيما يأتي.

رابعاً: موضوع المرأة في كتابات مالك بن نبي وموقفه من قضيتها.

لم يُفرِد مالك بن نبي موضوعَ المرأة بكتابٍ مستقلٍّ، كما فعل كثيرٌ من روّاد التّأليف في الفكر الإسلامي المعاصر، إلا أنّنا نجد في سياقات مختلفة تنبيهات مُركَّزة في مسائل لها صلة وثيقة بموضوع المرأة، بل نجد كلامًا مباشرًا وصريحًا عمّا عُرِفَ بقضيّة المرأة، ونجد كذلك أنّ مالك بن نبي عندما يحتاج إلى ضرب مثال تقريبًا لفكرة من أفكاره الأساسية؛ يختار أمثلة متعلّقة بالمرأة، ويجدها أوضح وأعمق في الكشف عمّا يريد التّنويه به، وأحيانًا يعقد عنوانًا جزئيًا خاصًّا بالمرأة كما هو الحال في كتابه «شروط النّهضة» في عنوان (مشكلة المرأة)، وكتاب «في مهبّ المعركة» في عنوان (قضيّة المرأة المسلمة)، وكتاب «بين الرّشاد والتّيه» في عنوان (على طريق حركة نسائية جزائرية).

ويصرّح أنّ موضوع «قضيّة المرأة» ليس بالهيّن البسيط، بل له أبعاد كثيرة ومتشابكة في كلّ مشروعٍ فكري نهضوي، كما يقول: «إنّي لا أرى مشكلة المرأة بالشّيء الذي يحلّه قلم كاتب في مقال، أو في كتاب، ولكنّي أرى أنّ هذه المشكلة متعدّدة الجوانب، ولها في كلّ ناحيّة من نواحي المجتمع نصيب، فالمرأة كإنسان تشترك في كلّ نتاجٍ إنساني أو هكذا يجيب أن تكون»[1].

وعليه؛ فإنّ القارئ لمؤلفات مالك بن نبي يجد كلامهُ مُتّجِهًا دائمًا إلى الفرد المسلم في المجتمع ومسيرته الحضاريّة، والمرأة لا بدّ داخلة ضمن ذلك، فما يجمعها مع الرّجل باعتبار الجنس البشري والإنسانية والعقيدة الواحدة؛ أهمّ وأولى ممّا يميّزها باعتبار النّوع، ضمن الفكرة المركزية التي تدور حولها معظم مؤلّفاته وهي نهضة العالم الإسلامي وسبل تحقيقها، أمّا ما اختصّ بالمرأة في فكره فيمكن إجماله في محورين أساسيين:

الأوّل: مقولاته التي تُحدِّد الإطار الصّحيح لتناول موضوع المرأة.

والثّاني: آراؤه التي تكشف عن المنطلقات اللّازمة لحركة نسائيّة راشدة، وهذا ما سيأتي تفصيله.

1/ الإطار الصّحيح لتناول موضوع المرأة:

لمالك بن نبي جملة من المقولات المهمّة التي تُحدِّد الإطار الصّحيح للحديث عن موضوع المرأة، بعيدًا عن الدّوافع المنحرفة به عن مساره الصّحيح، أو الأهداف المغرضة المستغلّة له، وتُنَبِّه في الوقت ذاته أنّ

(1) مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط4، 1987م، دار الفكر، دمشق، ص 118.

الخروج عن الإطار الصّحيح للموضوع، موقعٌ في نوعٍ من الاستلاب الحضاري والجَري وراء نموذج لا يناسب المرأة العربية المسلمة، وفيما يأتي عرض هذه المقولات حرفيًا كما جاءت في كتبه وهي:

أ/ يقول مالك بن نبي: «ليست مشكلة المرأة شيئًا نبحثه منفردًا عن مشكلة الرّجل، فهما يُشَكِّلان في حقيقتهما مشكلة واحدة وهي مشكلة الفرد في المجتمع»[1].

بهذا يكون التّركيز على خصوصيّة مشاكل المرأة والبحث عن حلول لها مفصولة عن الرّجل، كأنّه انطلاق من أنّ الرّجل هو سبب مشاكلها، وأنّ الحلول لا بدّ أن تُملَى عليه ليُطبِّقها، في حين أنّ كليهما يرتعان في مشكلات الأفراد والمجتمعات، مشكلة الجهل والظّلم وسلب الحقوق والاعتداء والاستعمار وغيرها، وينتبه مالك بن نبي إلى أنّ هذه المقولة قد تعني عند البعض إغراقًا لمشكلة المرأة وتعويمها في قضايا الفرد، فيضيف قائلاً: «ولقد نعلم أنّه يضيق صدر بعض ذوي الأذواق الرّقيقة بما نقول، فيحتجّون علينا بأنّ مثل هذا الموقف يذيب المرأة في المجتمع، ولكنّنا نقول إنّ إعطاء حقوق المرأة على حساب المجتمع؛ معناه تدهور المجتمع، وبالتّالي تدهورها، أليست هي عضوًا فيه؟ فالقضيّة ليست قضيّة فرد، وإنما هي قضيّة مجتمع»[2].

وعليه؛ فإنّ ما تختصّ به المرأة من مشكلات لا ينبغي النّظر إليها بعيدًا عن كونها فردًا في المجتمع، وما يختصّ به الفرد من مشكلات لا ينبغي النّظر إليه بعيدًا عن كونه كائنًا اجتماعيًا، وبالتّالي فإنْ كان لا بدّ من التركيز على خصوصية مشكلةٍ ما، كما يقتضيه البحث والتحليل والدّراسة المختصّة؛ فهذا ليس إلاّ كما يدرس الأطباء مختلف التخصّصات المتعلّقة بجسم الإنسان، لكنّ الإنسان في الحقيقة يعيش بكلّ بدنه غير مفصول الأجهزة، بل وبروحه مع هذا البدن، وعليه فإذا كان لا بدّ من الفصل من أجل الدّراسة والتّحليل والبحث، كما هو الحال في مختلف العلوم؛ فلا بدّ من استصحاب الرؤيّة الكاملة، ووضع كلّ جزء من الصورة في مكانه، من أجل فهم المشكلات، ووضع الحلول، دون أن يطغى جانبٌ على آخر.

ب/ يقول مالك بن نبي: «لسنا نرى في الأقاويل التي يقولها على حقوق المرأة أدعياءُ تحريرها، أو الذين يطالبون بإبعادها عن المجتمع، إلاّ تعبيرًا عن نزعات جنسية لا شعورية»[3].

يصف مالك بن نبي في هذه العبارة أحد أهمّ الدّوافع المنحرفة في تناول موضوع المرأة، وهو الدّافع الجنسي اللاشعوري، والذي يظهر في توجُّهين متضادّين تمامًا:

أحدهما: يدعو لخروجها في زينة فاتنة، توقظ الغرائز وتُرضي الشّهوات.

(1) المرجع السابق، ص123.

(2) المرجع نفسه، ص125.

(3) المرجع نفسه، ص123.

والثّاني: يدعو إلى إبعادها تمامًا عن المجتمع وحبسها داخل سجنها التقليدي «البيت»، وإذا كان الدّافع الجنسي ظاهرًا لدى أصحاب التّوجه الأول، فإنّه قد يخفى لدى أصحاب التوجّه الثّاني، ولذلك يقف مالك بن نبي عنده ليؤكّد أنّه: «من العسير أن نرى دور الغريزة في مثل هذا التفكير، ولكن قد يكون في منعها من الخروج مُسوّغٌ خَفيّ ممّا يستقرّ في نفس الرّجل، من دافع جنسي من الخوف على أُنثاه أن يشاركه فيها غيره، وإذن فهو يدافع عن أُنثاه، وهنا يظهر جليًّا ذلك الاعتبار الجنسي في تفكيره»[1].

نعم، إنّ طغيان الدّافع الجنسي لدى بعض الرّجال في تناول موضوع المرأة مشكلٌ حقيقي، خاصّة لدى المتديّنين الميّالين إلى إبعادها عن المجتمع، بحجّة حرمة الاختلاط، ووجوب اتّقاء فتنة النّساء، هؤلاء الذّين يكشف مالك بن نبي عن الدّافع الجنسي المستتر وراء هذا الميل، وهو المحافظة على الأنثى، تمامًا كما تفعل السّباع المتقاتلة بكلّ شراسة من أجل الظّفر بالأنثى، كيف يمكن للرّجل المتشبّع بهذه الدّوافع أن يتناول قضايا المرأة في بُعدِها الحضاري؟

وعندما يقع التّفكير تحت سلطان الغريزة؛ لا يستهويه من موضوع المرأة إلاّ فروع الفقه المتعلّقة بحدود العورة، وأحكام اللّباس، والواجبات الزّوجية، وهي مُهمّة ولا شكّ، لكنّها ليست هي الموضوع، بل هي جزءٌ يسيرٌ ممّا يهمّ المرأة الإنسان، المرأة في مسارها الحضاري.

وفي الواقع؛ نجد هذا الذي يُسمّيه مالك بن نبي بالدّافع الجنسي في التّعامل مع موضوع المرأة؛ قد أورث ميلًا لدى كثيرين إلى التشديد عليها، والمبالغة في إبعادها عن المجتمع، والتركيز على جانب التحذير منها، وتغليب هواجس الخوف من الفتنة، وضرورة الانتباه من الوقوع في حبالها، والنّجاة من كيدها، ما أورث بدوره ازدراءً لعقلها، وعدم تصوّر دورها الحضاري في نهضة الأمّة، حتّى كأنّ الإسلام بعظمته لم يقدر على تربية امرأة وَرِعَة، قادرة على التفكير والفهم.

جـ/ يقول مالك بن نبي: «ليس بمُجْدٍ أن تُعقد موازنة بين الرّجل والمرأة، ثم نخرج منها بنتائج كميّة تشير إلى قيمة المرأة في المجتمع ... ونحن نرى لزامًا علينا أن يكون تناولنا للموضوع بعيدًا عن تلك الأناشيد الشّعرية التي تدعو إلى تحرير المرأة»[2].

يؤكّد مالك بن نبي أنّ من صُوَر التّناول غير السّليم لموضوع المرأة؛ طغيان نزعة المقارنة بينها وبين الرّجل؛ لأجل إثبات قيمتها الحقيقية بالنّسبة إليه، وأنّها قادرة على إنجاز ما يستطيع الرّجل إنجازه، كأنّ المجتمع حلبة صراع، على المرأة إثبات جدارتها وانتزاع الاعتراف بقيمتها، إنّ هذه الخلفيّة في التّعامل مع الموضوع

(1) المرجع السابق، ص124.

(2) المرجع نفسه، ص123-125.

مُضِرّةٌ أيّما ضرر؛ لأنّها لا تراعي مصلحة أحد، لا مصلحة المجتمع، ولا مصلحة الطّرفين الرّجل والمرأة على حدٍّ سواء؛ فالدّور الذي ستختاره المرأة لتُؤدّيه في حياتها عندئذ لن يكون بدافع المصلحة، وما تقتضيه حاجتها وحاجة المجتمع، بل بدافع فرض الوجود وإثبات الذّات، هذا الدّافع الذي يُدندن عليه كلّ دعاة تحريرها، والذي سيقودها بالضّرورة إلى اختيار الوظائف التي برع فيها الرّجال؛ لتقول بعدها لنفسها وللمجتمع وللرّجل قبل ذلك: «لستَ أفضل منّي؛ فقد تمكّنتُ من فعل ما تفعله»، وربّما لو وُزِن فعلها هذا بميزان العقل والمصلحة لما رجحت كفّته.

من هنا يرى مالك بن نبي أنّ إحاطة موضوع المرأة بنوع من «الفلكلور» والاحتفالات المناسباتية الفارغة، التي تُرفع فيها شعارات التحرير والتقدّم، في الوقت الذي يَسكُت الجميع عن أمراض الواقع، ليست إلاّ إغراقًا للمرأة في مظاهر خادعة، تُبعدها شيئًا فشيئاً عن واقعها ومشكلاته الحقيقية.

تأسيسًا على ما سبق؛ يمكن القول: إنّ مالك بن نبي يرى أنّ الإطار الصّحيح لتناول موضوع المرأة، هو إطار المجتمع الذي تعيش فيه، فينبغي عدم الفصل بين مشاكلها ومشاكل مجتمعها، كما يتعيّن على الرّجل عند تناول الموضوع ترك تلك النّزعات الجنسيّة اللاشعورية، سواءً الرّجل الراغبُ في سفورها، أو الرّاغب في حجبها؛ لأنّ تلك النّزعة تُحوِّل القضيّة من قضيّة المرأة إلى قضيّة الأنثى، كما أنّ نزعة المقارنة التي طبعت كثيرًا من الأفكار حول المرأة؛ ليست أيضا بمجديّة في تناول الموضوع؛ لأنّها تُغفِل مبدأ تكامل الأدوار، وتركز على مبدأ إثبات الذّات، وهذا لا يصبّ في مصلحة الفرد ولا المجموع.

2/ المنطلقات اللازمة لحركة نسائية راشدة:

حرص مالك بن نبي إلى جانب بيان الإطار الصّحيح لتناول موضوع المرأة، على بيان أهمّ المنطلقات اللازمة لحركة نسائية راشدة، في وقت شهدت مختلف المجتمعات العربية إبّان فترة الاستعمار وبعده، عملًا نسائيًّا واسعًا في المشرق العربي، ثمّ توسّع إلى المغرب العربي، وعرفت تجارب الحركات النّسائية المتأخّرة زمنيًا بسبب ظروف الاستعمار، نوعًا من المحاكاة للتّجارب النّسائية السّابقة، بسبب القرب الثقافي بين المجتمعات العربية، فتناول مالك بن نبي موضوع الحركة النّسائية كما يراها، منتقِدًا بعض مظاهر الخلل فيها، ومُؤَكِّدًا على ضرورة العناية بصحّة المنطلقات، لأنّ الخلل في المنطلق يطبع بعد ذلك المسارَ كلَّه، فتكلّم تحت عنوان «معالم على طريق الحركة النّسائيّة الجزائريّة»[1] عن أهميّة سلامة الأُسس الأولى، والمنطلقات المبدئية، حيث تتحدّدُ الضّوابط والمعالم التي يُرجى منها ترشيد مسار الحركة النّسائية، وممّا أكّد عليه ما يأتي:

(1) مالك بن نبي، ***بين الرشاد والتيه***، ط1، 2002م، دار الفكر، دمشق، ص61.

أ/ العناية بالتنشئة السليمة للمرأة، والنشأة الصحيحة للحركة النسائية:

يُنبّه مالك بن نبي إلى أهميّة حصول المرأة على التّربية السّليمة في محضن الأسرة والمجتمع، وأهميّة النّشأة الصّحيحة للحركات النسائية كذلك؛ لأنّ الانحراف إذا كان في المنطلقات، فإنّه لا شكّ يطبع المسار كلّه فيما بعد، يقول: «هكذا نجد الثّورة –الجزائرية– قد دفعت الحركة النّسائية إلى الأمام، لكنّها ما تزال حركة فتية، لها من الشباب حيويته وإقدامه، لكنّ شبابها قد يعوّقها إذا أهملنا شأنها ولم نراقب نباتها كما ينبغي»[1].

ويستند في تأصيل هذه الفكرة على حديث الرسول ﷺ: «إياك وخضراء الدِّمن»[2]، مؤكّدًا أنّ المنبت السّوء لا بد أن يُؤثّر في الفرد على نحوٍ ما؛ لذلك يقف على أهميّة التّنشئة الأولى للمرأة ولحركتها في المجتمع بعد ذلك، فإنّ المحاضن إذا كانت منبت سوء، فلن تدفع إلى المجتمع إلاّ بنماذج مُشوَّهة من النساء، فيقول مُشبّها بالزّرع كما جاء في الحديث: «فهناك أسمِدةٌ تُعين على إنبات النّبات الطّيب، وهناك مزابل لا ينبت فيها إلا النّبات العفن»[3].

ثمّ يضيف: «على حركتنا النّسائية أن تختار إذن لغرس جذورها تلك التُّربة النَّقية التي أنبتت «سُميّة»، و«لالة فاطمة نسومر»، و«فضيلة سعدان»»[4]، من هنا حرص مالك بن نبي على بيان نوعين من الانحرافات في الحركات النّسائية: الأوّل يقع عادة عند النَّشأة، والآخر يقع خلال السَّير.

أمّا الذي يقع عند النَّشأة فهو ما يُسمّيه بالصِّبغة المُطالباتيّة في الحركات النّسائية، التي تُنمّي في المرأة نزعة افتكاك الحقوق بكل الطّرق والوسائل، من خطابات الحماس الملهب للمشاعر، والصّدام مع كلّ من تعتقد فيه أنّه يحرِمُها حقّها، يقول: «إنّ الخطأ يتسرّب غالبًا إلى الحركات النّسائية حينما تُنَشَّأُ كيفما كان مَنشؤُها على أنّها حركات مُطالَبَة، أو بالأحرى مُرافعة ضدّ المجتمع»[5].

فالحركات النّسائية التي تدور حول المطالبة بالحقوق، يكون جوّها العام في الواقع أقرب إلى أجواء مرافعات النَّقابات العُمّالية، ومنطق النّضال لأجل اقتطاع الحقوق، من منطلق أنّها لا تُعطَى وإنَّما تؤخذ بالمغالبة والتَّدافع، يرى مالك بن نبي أنّ هذا ليس الجوّ المناسب ولا المنشأ السّليم لحركة نسائية راشدة، ينبغي أن

(1) المرجع السابق، 65.

(2) أخرجه الدارقطني، مسند أبي بكرة الثّقفي، رقم: 4726، وقال: «غريبٌ من حديث أبي وجرة يزيد بن عبيد عن عطاء، تفرّد به الواقديّ عن يحيى بن سعيد بن دينار عنه عُروة عن الخدري». ابن القيسراني، ***أطراف الغرائب والأفراد من حديث رسول الله*** ﷺ، للإمام الدارقطني، تحقيق: محمود محمد محمود حسن نصّار، ط1، 1419هـ/1998م، دار الكتب العلمية، بيروت: ج5، ص78.

(3) مالك بن نبي، ***بين الرشاد والتيه***، ص65.

(4) المرجع نفسه، ص66.

(5) المرجع نفسه، ص66.

يحكمها منطق التّعاون لأجل أداء الواجبات أوّلاً، وتقاسم المسؤولية في مجالات الاشتراك، والنّظر في المصالح العامة للمجتمع.

وأمّا الخلل الذي يقع خلال المسار؛ فهو ظهور المؤيّدين لمطالب الحركات النّسائية من خارجها، لا خدمةً للمرأة، ولكن تحقيقًا لأهداف أصحابها، يقول مالك بن نبي في ذلك: «ثمّ يأتي من يأتي ليؤيّدها –في المطالبة– وكثيراً ما يكون التأييد مُغرِضًا، كما يبدو في جناح الصَّحافة الفرنسية الذي أصبح مُروِّجًا عندنا لنظرية «حركة نسائية»[1]، والوقوع في مثل هذا المطبّ في الحقيقة ما هو إلاّ نتيجة للتنشئة على منطق المطالبة بالحقوق؛ فيقع الانسياق مع كلّ مُؤيِّد مهما كانت مشارِبُهُ وأغراضُه.

ومن المعلوم أنّ الجهات المتعدِّدة التي تتبنّى المطالب النّسائية لا تقوم بذلك بالضَّرورة إيمانًا بها، والمثال الذي يسوقه مالك بن نبي يفيد هذا تمامًا، فالاستعمار الفرنسي الذي دمّر البلاد وخرّبها وعاث فيها فسادًا، وعمل على طمس ثقافة المجتمع بكلّ ما أوتي من وسائل، ها هو يتبنّى مطالب الحركة النسائية في التحرّر، فأيّ معنى يدلّ عليه هذا التصرف سوى السّعي لاحتوائها والمصادرة على مطالبها، ثمّ توظيف كلّ ذلك لأهداف الاستعمار المعلومة.

وكذلك تفعله بعض الحكومات، أو ربّما التنظيمات الدَّولية وغيرها، عندما تدعو إلى ضرورة دعم حركة المجتمع المدني، بما فيها الحركات النّسائية وتتبنّى مطالبها، فإذا لم ينتبه روّاد تلك الحركات لحقيقة هذا الدّعم، قد يجدون حركاتهم في نهاية المطاف خادمةً لسياسات غيرها، ودائرةً في فلكٍ صُنِع لها.

وعليه يعتبر مالك بن نبي الاهتمام بمختلف المحاضن التي تبني طريقة التفكير هو صمّام الأمان لترشيد الحركة النسائية؛ ومنه تكون أولويّة الجهد العمل على سلامة المنطلقات، كما يقول: «لا بدّ أن نطرح منذ الآن مشكلة إنباتها –الحركة النّسائية– حتّى لا نغرس جذورها أينما كان وكيفما كان»[2]، هذا لتنسجم الحركة النّسائية الجزائرية والدّور الحضاري الذي يؤدّيه الجزائريون في مسار الأمّة المسلمة.

ب/ الإيمان بأنّ المرأة قادرة على حمل قضايا الأمّة:

كثيراً ما يروج لدى النّاس أنّ القضايا الكبرى في حياة الأمّة لا يحملها إلاّ الرّجال، أمّا النّساء فلا شأن لهنّ بها، قضيّة التحرّر من الاستعمار، والتصدّي لمشكلات التخلّف، والإسهام في مختلف الأدوار الحضارية لنهضة الأمّة، يُفنِّد مالك بن نبي هذا الرّائج بدلالة الواقع التّاريخي لنساءٍ كنّ فاعلات في مختلف القضايا الكبرى التي واجهت مجتمعاتهنّ، ويؤكّد أنّ القول بعدم قدرة المرأة على حملها قولٌ غير صحيح، فلقد

(1) المرجع السابق، ص66.

(2) المرجع نفسه، ص 65.

حفظ لنا التّاريخ أسماء نساءٍ آمنّ بقضاياهنّ وناضلن لأجلها، ومِتْنَ في سبيلها، فقد خلّصت «جان دارك» الفرنسيين من طاغيّة مستبد مثل «شرلوت كورديه»، و«الكاهنة» بطلة مرتفعات الجزائر قبل الإسلام، التي قامت فيما يبدو بدور مزدوج، فقد كانت البطلة التي قادت حركة المقاومة في وجه «عقبة بن نافع»، وكانت من ناحيةٍ أخرى الأمّ التي فتحت ضمير أولادها للإسلام»[1].

يقول في ذلك: «إنّ الثّورة نقشت على وجه التاريخ وجوه نساءٍ كثيراتٍ من اللائي عِشْنَ ومِتْنَ في سبيل الواجب والشّرف كـ «فضيلة سعدان» التي حصدتها ذات يومٍ في أحد شوارع قسنطينة رشّاشة، ولكن بعد أن أذاقت قوم الجنرال «ماسو» الخزي والمرارة فترة طويلة من الثّورة»[2].

إنّ الإيمان بقدرة المرأة على حمل القضايا الكبرى والتّاريخية ينبغي أن يتوطّن أوّلاً في فكر المرأة نفسها حتى تكفّ عن ازدراء ذاتها، كما ينبغي أن يحصل بداخل الرّجل حتّى لا يطغى معنى الأنوثة في نظرته للمرأة على معنى الإنسانية، وحتّى لا يُعيق إسهامها في نهضة الأمّة بسبب ذلك الهاجس الجنسي كما سبق ذكره، والذي يورث شعورًا أنّها نصيبه الذي يمتلكه من الإناث، ولا يُزاحمه فيها غيره، ومن ثمّة يُبعِدُها عن كلّ عمل يَصُبّ في المصلحة العامّة للمجتمع.

وقد تنجح المرأة فيما يعجز عنه الرّجل، عندما تتحوّل الأنوثة عنصرًا للقوّة يضاف إلى قوة الفكرة، وقوة الإيمان بها، كما يقرّر ذلك مالك بن نبي في قوله: «كلّ قضية جليلة تضع بصماتها في مصير الإنسانية، وتترك صداها في التاريخ ترسم على مركب الزّمن وجوهًا كريمة تمثّلها، ووجه المرأة ليس أقلّها بروزًا ووضوحًا، بل قد تجد في أنوثته الخاصّة لونًا مثيرًا ومؤثّرًا لا تجده في غيره»[3].

إنّ الإيمان بهذه المقدرة ينبغي أن يتوطّن في المجتمع كلِّه، رجاله ونسائه وأطفاله، وعندئذ يكون قد تحقّق أحد أهم منطلق لحركة نسائية راشدة، وهو هذا الإيمان بما تستطيع المرأة القيام به من جليل القضايا.

جـ/ تجنّب الصّدام مع المجتمع:

يُقرّر مالك بن نبي أنّ الحركة النّسائية الرّاشدة هي الخارجة من رحم المجتمع والمطبوعة بطابعه فيقول: «ينبغي أن تطبع حركتنا النّسائية بطابعنا، لا بطابع ما يُصنع في الخارج، وعلى أيّة حال؛ فالمرأة ليست كائنًا يعيش وحده، ويطرح مشكلاته على هامش المجتمع، إنّه أحد قُطبيْه، وقطبه الآخر الرّجل»[4]، وعادةً ما

(1) المرجع السابق، ص64.
(2) المرجع نفسه، ص65.
(3) المرجع نفسه، ص64.
(4) المرجع نفسه، ص66.

يحصل صدام الحركات النّسائية مع المجتمع عندما تنفصل المرأة عنه وتتنكّر له، من هنا يقف مالك بن نبي على صور كثيرة لانفصال المرأة المسلمة عن مجتمعها وأهمّها:

- **التقليد الظاهري للمرأة الغربية:**

فهذا التّقليد ليس إلاّ صِدامًا مع المجتمع المسلم، فضلًا عن أنّه ليس طريقًا لحلّ مشكلاتها بل في الحقيقة هو تَعميقٌ لأكثرها كما يقول: «ولكنّنا بشيء من النّظر نرى أنّ انتقالنا بالمرأة من امرأة مُتَحجّبة إلى امرأة سافرة، تُطالع الصُّحف وتنتخب وتعمل في المصنع؛ لم يحلّ المشكلة، فهي لا تزال قائمة، وكلّ ما فعلناه أنّنا نقلنا المرأة من حالة إلى حالة، وسنرى عمّا قريب أنّ انتقالنا هذا عقّد المشكلة بعد أن كانت بسيطة»[1].

هذا التّقليد الذي يعتبره مالك بن نبي مجرّد انتقال من حالة إلى حالة ليس في حقيقته إلاّ تغييرًا في الظّاهر وممارسات شكلية غير واعية بحقيقة الدّور الذي تؤدّيه المرأة الأوربية من منطلق ثقافتها، وفي مجتمعات فقدت تنظيمها الاجتماعي، كما يضيف: «-وقد امَّحت فيه معاني التّقديس للعلاقة الجنسية- يعتبر هذه العلاقات تسليةً للنّفوس المتعطّلة، وبذلك فقدت وظيفتها من حيث هي وسيلة لحفظ الأسرة وبقاء المجتمع»[2]، وعليه يكون سفور المرأة الأوربية موائمًا وهذه الرؤية، أمّا في بلادنا العربية المسلمة التي تعتقد أنّ العلاقة الجنسية بين الرّجل والمرأة لا تصحّ إلاّ في إطار الزّواج، الوسيلة المشروعة الوحيدة لحفظ النّسل وبقاء الأسرة، فما معنى أن تخرج المرأة عندئذٍ سافرة لا تثير في الرّجال إلاّ غرائزهم؟ من هنا يكون سفور المرأة المسلمة تعقيدًا لمشكلات مجتمعها لا حلًّا؛ إذ قد يُخيَّل لها أنّها تحاكي مسار التّطوّر كما هو لدى الأوربيات، بينما هي في الحقيقة تحاكي مظهرًا فارغًا مُنتزعًا من ثقافته ومُصادِمًا لثقافة المجتمع ودينه؛ لأنّ الزّي ثقافة قبل أن يكون مظهرًا خارجيّا، والزّي الذي تختاره المرأة لنفسها -كما يؤكّد مالك بن نبي- دليلٌ واضحٌ على الدّور الذي تريد تمثيله في المجتمع وتمثّله فِعلا[3]، ومن ثمّة يرى في الطّرف المقابل أنّ المبالغة والإسراف في ستر المرأة بشكل شاذٍّ، قد يكون كذلك تعبيرًا عمّا في مجتمعاتنا من التّخلّف والرّكود، بل وحتى من الرّياء والنّفاق[4].

وعليه فإذا كانت أفكار الأوربيين في المرأة والمجتمع، وعقائدهم في الله والإنسان لا تجد لها قبولًا في المجتمعات المسلمة، فلِمَ تقليد الأشكال إذن؟ وليست إلاّ ترجمان الأفكار والعقائد.

---

(1) مالك بن نبي، ***شروط النهضة***، ص117.

(2) المرجع نفسه، ص 117.

(3) المرجع نفسه، ص117.

(4) المرجع نفسه، ص118.

يؤكّد مالك بن نبي أنّ كلّ تغييرٍ للمظهر مبتوتًا عن المخبر؛ ليس في حقيقته إلاّ صوَرًا خاويةً من معانيها؛ لأنّه تغيير لم ينفذ إلى الإنسان الكائن خلف ذلك المظهر، ولبيان فكرته هذه يضرب لنا مثالًا عن النّساء اليهوديات المقيمات بجنوب الجزائر في «واد ميزاب» عندما تأسّست «إسرائيل» ودُعين إلى الهجرة إليها فقال: «كنّ يأتين في قطار الجنوب، يعبُرْن الباب ويدخلن في تلك البناية في صورة «بلديات»» الواحات الصحراويّة، ثمّ نشاهد بعد أسبوع يهوديات يخرُجْن من ذلك المبنى في صورة المواطنات المتأهّبات إلى الباخرة التي ستُقِلُّهنَّ إلى «إسرائيل»، لقد تركن «البَلْغَة» كي يلبسن الحذاء الأنيق، وتركن الملحفة كي يرتدين الفستان، وتركن زجاجة الكحل كي يتزوّدن بأدوات التّجميل العصرية»[1].

يقف مالك بن نبي أمام هذا التّغيير السّطحي، الذي لم ينفذ إلى التّفكير والشُّعور ليؤكّد خداع المظاهر، فخلف هذه الصُّورة الجديدة لهؤلاء النّسوة لا توجد في الحقيقة إلاّ امرأة صحراويّة من جنوب الجزائر، تَكْبِت عناصر نفسيّة كثيرة لتستطيع التّماشي مع الشّكل الجديد، ومع اليهوديات القادمات من انكلترا وألمانيا، وحتّى لا يقع الإنسان في خداع المظاهر؛ ساق مالك بن نبي هذا النّموذج الواقعي الذي رآه وعاينه وأثّر فيه، وجعله يقرّر أنّ الرّؤية الصّحيحة هي رؤية الفكر لا رؤية المظاهر والشّكل، فقال: «إنّ من يرى مرأى الفكر ومن يرى مرأى العين بينهما فرق»[2].

ويَعِي بعض الدّعاة المفتونين بالمجتمعات الأوربيّة أنّ محاكاة الأشكال والصّور؛ ليس هو المطلوب لنقل التّجربة الأوربية إلى مجتمعاتنا، فيحرصون على الدّعوة إلى القيم الغربية، ولا يُرضِيهم التّقليد الشّكلي، ويعملون على نشر ثقافة السُّفور بدل السُّفور نفسه، وثقافة المجتمعات الغربية بدل أشكال وصور تلك المجتمعات، بل ربّما يحافظون على شكليات المجتمعات العربية كما هي في «العادات والتّقاليد» حتّى يبقى لديهم نوعٌ من القابلية في الأوساط الاجتماعية، خاصّة المحافظة منها، وبهذا نستطيع أن نُفسِّرَ نزعة المحافظة على بعض التقاليد لدى دعاة تحرير المرأة على النّمط الأوروبي.

(1) مالك بن نبي، ***في مهبّ المعركة***، ط 2006، دار الفكر، دمشق، ص101-102.
(2) المرجع نفسه.

– تبنّي مشكلات المرأة الغربية:

من المعلوم أنّ كلّ محيطٍ اجتماعيٍّ، وكلّ بيئةٍ حضاريةٍ لها طبيعة مشكلاتها، وعليه فعندما تُلقي المرأة المسلمة بمشكلاتها في زاوية الإهمال، وتملأ تفكيرها بمشكلات المرأة الغربية معتقدةً أنّها مَعنيَّةٌ بها؛ تكون بالفعل قد خرجت عن مجتمعها وسارت في طريق مُصادمته، يصف مالك بن نبي مشكلات المرأة الغربية في أنّ المجتمع الغربي الذي تحرّرت المرأة الغربية منه؛ هو الذي قال لها: «عليك أن تأكلي من عرق جبينك» في بيئة ممتلئة بالأخطار على أخلاقها، وتركها في حرية مشؤومة ليس لها ولا للمجتمع فيها نفع، ففقدت –وهي مخزن العواطف الإنسانية– الشُّعور بالعاطفة نحو الأسرة، وأصبحت بما أُلقِي عليها من متاعب العمل صورة مُشوَّهة للرّجل دون أن تبقى امرأة ... وجنت أوروبا ثمار هذه الأسرة المنحلّة مشكلات من نوع جديد»[1].

إنّ هذا الوضع للمرأة في الغرب قذف في وجهها جملةً من المشكلات، فالنَّسل صار مشكلة، وزوال البعد الوظيفي للعلاقات الجنسية، وفقدان التّنظيم الاجتماعي، كلّ ذلك مشكلات البيئة الغربية، فهل إذا قامت المرأة المسلمة تنادي بحلّها، تكون قد خدمت نفسها ومجتمعها؟ إنّ المسائل التي صارت اليوم تأخذ الأولوية في جدول أعمال الملتقيات الدَّولية عن المرأة، مثل حرية العلاقات الجنسيّة، وزواج المثليين، والحقّ في تغيير الجنس، هذه مشكلات مجتمع يرى أنّ العلاقة الجنسية ما هي إلاّ اللّذة العاجلة، وبأيّ طريق أمكن تحقيقها فلا بدّ أن يكون مشروعًا مُعترَفًا به، ثمّ لا سلطة للدّين ولا المجتمع في منع ذلك، وإلاّ كان عدوانًا على حرية الإنسان، إنّ هذه المشكلات بحلولها لا يمكن أن تكون هي مشكلات المرأة المسلمة في مجتمعها، ومع ذلك تُصِرُّ بعض الناشطات في الحركات النّسائية في عالمنا العربي على المشاركة في هذه الملتقيات والخوض في مسائل «الجندر» والمثلية الجنسية وغيرها، وكلّ ذلك في حقيقته تبنّي لمشكلات الغير، وسباحة مع التيار لمجرّد المجاراة، ظنًّا أنّه بُعدٌ عالمي في تناول مشكلات المجتمعات، وتطوّرٌ تقتضيه مُسايرة الجديد، وما هو في الحقيقة إلاّ إفرازات القذارة التي انحدرت إليها المجتمعات الأوربية في العلاقات الجنسية.

فإذا كان استيراد الفكرة من البيئة التي نشأت فيها، وربّما كانت صالحة لها لا يجعلها بالضَّرورة صالحة لبيئة أخرى، فكيف إذا كنّا نستورد المشكلة لا الفكرة، ونحاول أن نجد لها صدًى في بلادنا؟

وهكذا رأى مالك بن نبي أنّ رُشدَ الحركات النّسائية في بلادنا، إنّما يتحقّق في انسجامها مع مجتمعها وبعدها عن مُصادمته، تلك المصادمة التي كان السّفور أوضح صورها، إلى جانب الافتتان بمحاكاة مظاهر الحياة الأوروبية، ثم تلاه تبنّي كثير من الحركات النّسائية لمشكلات المرأة الأوروبية، رغم غربتها وبعدها عن المرأة العربية ومجتمعها.

(1) المرجع السابق، ص128.

د/ الحذر من إقحام قضيّة المرأة في متاهات السّياسة.

لمالك بن نبي فكرةٌ مُبدِعةٌ عن الأفكار والأصنام، فاعتبر الفكرة والصَّنم ضدّيْن لا يجتمعان، إذا زالت الفكرة حلّ محلّها الصَّنم، وإذا وُجِد الصَّنم قضى على الفكرة، فالأفكار منشؤها العلم والفهم والوعي، أمّا الأصنام فمنشؤها الجهل كما يقول: «إنّ الجهل في حقيقته وثنية؛ لأنّه لا يغرس أفكارًا بل يُنصِّب صنمًا»[1]، وقد نزّل هذا على الفكرة الإصلاحية في علاقتها بمظاهر من العمل السّياسي، مُعتبِرًا الإصلاح فكرةً، وتلك المظاهر من السّياسة صنمًا، كما يقول: «لقد كان على الحركة الإصلاحية أن تبقى متعاليةً عن أوحال السياسة والمعامع الانتخابية ومعارك الأوثان»[2]، وإذا كانت الحركة النّسائية في أصلها عملًا إصلاحيًّا؛ فهي معْنِيةٌ بهذا الكلام؛ لذا نجده يؤكّد على ضرورة إبعاد قضية المرأة المسلمة عمّا يعتبره «صنم التَّسييس» الذي سيقضي لا محالة على الفكرة الإصلاحية للقضية، الفكرة الأساسية التي قامت الحركة النّسائية أصلًا لتجسيدها؛ لأنّها إذا فقدت استقلالية مواقفها، ووجدت نفسها محاصرةً بإملاءات خارجية عليها تطبيقها، أو غارقة –على حدّ تعبير مالك بن نبي– في معامع انتخابية لا تنال المرأة منها إلاّ تكثير السّواد ورفع الأصوات، وكسب الخصومات، عندها يحلّ الصّنم وتتبخّر فكرة الإصلاح؛ لأنّ الحركة النّسائية عندئذ تكون قد تحوّلت برمّتها إلى أداة تنفيذ سياسات لم تصنعها، ولا حتّى شاركت في صنعها.

فهذا في نظر مالك بن نبي هو صنم السياسة، الذي يقضي على فكرة التغيير والإصلاح، ولا يعني هذا أن تبقى الفكرة الإصلاحية في قضيّة المرأة مبادرات فردية غير مُنظّمة ولا مُخطّط لها، كما لا يعني رفض الاستفادة ممّا توفّره الحكومات من وسائل خادمة، إنّما يعني أن لا تفقد الحركة النّسائية قدرتها على امتلاك استقلال قرارها بما يخدم فكرتها الإصلاحية؛ وتكون مبادرة يُفرزها ويتبنّاها المجتمع نفسه، فقد أكّد مالك بن نبي نفسه على أنّ قضية المرأة تتطلّب عملًا جماعيًا منظّمًا ينهض به العلماء عندما طرح سؤال: «بأيّ أسلوب يمكن للمرأة المسلمة أن تقوم بدورها، وكان جوابه: إنّ علماءنا ومثقّفينا ونساءنا أنفسهنّ، جميعًا مسؤولون عن هذا جواب»[3].

ولأجل تحقيق هذا الحلّ الجماعي يقترح مالك بن نبيّ مشروع مؤتمر عامّ يقول عنه: «وحبّذا لو أنّ نساءنا عقدْنَ مؤتمرًا عامًّا يُحدِّدن فيه مهمّة المرأة بالنسبة لصالح المجتمع؛ حتّى لا تكون ضحيّة جهلها، وجهل الرّجل بطبيعة دورها»، ثمّ يُضيف: «بشرط أن يضمّ علماء النفس، وعلماء التربية والأطباء وعلماء الاجتماع

(1) المرجع السابق، ص39.

(2) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص32.

(3) المرجع نفسه، ص120.

وعلماء الشريعة وغيرهم، وحينئذٍ نستطيع أن نقول: إنّنا وضعنا المنهج الأسلم لحياة المرأة، ولسوف يكون هذا التخطيط حتمًا في صالح المجتمع؛ لأنّ علماءه والمفكّرين فيه هم الذين وضعوه»[1].

وختامًا يمكن القول: إنّ تناول مالك بن نبي لموضوع المرأة؛ كان ضمن المعالم الأساسية لفكره، باعتبارها الإنسان الذي يُشكّل أحد أهمّ المتغيّرات الثلاثة في دورة الحضارة عنده (الإنسان، التراب، الزمن)، دون إغفال ما قد تختصّ به من أدوار أو ربّما من مشكلات، ولقد وجد مالك بن نبي في بعض النماذج النسائية أفضل تمثيل لما حمل من أفكار، فنجده يقف أمام امرأة من عصر رسول الله ﷺ وهي «الغامدية» التي جاءت لرسول الله تعلن عن خطيئتها وتطلب إقامة الحدّ عليها، عندما تحرّرت روحها من قيود الغريزة، وسيطرت عليها العقيدة، يؤكّد مالك بن نبي أنّ هذه هي أوّل خطوة على طريق النُّهوض الحضاري، عندما تُكْبَت الغرائز ويتمكّن الإنسان من السَّيطرة على جموحها وطغيانها»[2].

وكذلك استوقفت مالكَ بنَ نبي نماذجُ نسائية كثيرة، مثل الفرنسية «جان دارك»، والجزائرية «لالة فاطمة نسومر»، و«فضيلة سعدان»، وقبلهما «الكاهنة»، ويقف كذلك أمام نموذج «ولاّدة» الأندلسية، التي أشرفت على «صالون أدبي» بالتعبير المعاصر، قبل أن يلمع اسم «دي رامبولين» في الأدب الفرنسي، ونموذج «رابعة العدوية»[3]، وغيرهنّ.

وهكذا، فعلى الرّغم من أنّ مالك بن نبي لم يؤلّف كتابًا مستقلاً عن المرأة، ولعلّ ذلك له دلالته في عدم فصل قضيتها، إلاّ أنّ القارئ يجدها حاضرة في كتبه حضوراً واضحاً ضمن رؤيته الكليّة لفكرة النّهضة ومشكلاتها، أبرز مقوّمات نجاح المرأة في مسار الحضارات عبر تاريخ البشرية.

إنّ رؤية مالك بن نبي لموضوع المرأة وقضيتها كان كفيلًا بأن يؤطّر الحركة النسائية الجزائرية؛ لما فيها من العراقة الدينية والمواكبة لمتطلّبات العصر، وبالفعل فقد كان لها أثرٌ على كثيرات، خصوصًا من النخبة المثقفة والأكاديمية، إلاّ أنّ هذا الأثر لم يشكّل تيارًا عامًّا راسخًا رسوخ فكر مالك بن نبي في بعده الحضاري.

وتبقى أسئلةٌ مُلِحّةٌ، وقد مرّ على وفاته –رحمه الله– ما يقرب نصف قرن من الزّمن لا تزال عالقة، فهل حقيقةً أثّرت رؤيته على الحركة النسائية الجزائرية كما كان يُريد؟ والمشهد الظّاهر اليوم يعجّ بمن اكتفَيْنَ بحضور الواجهات، الحضور الشكلي الذي يأخذ من المرأة الكثير، وقد لا يضيف إلى رصيدها الفكري والإيماني شيئًا ذي بال؟ يكاد النّاظر لواقع الحركة النسائيّة الجزائرية اليوم يجزم بضعف ذلك الأثر المنشود، فلا

(1) المرجع السابق، ص128، ص131.

(2) مالك بن نبي، ***مشكلة الأفكار***، ص72.

(3) المرجع نفسه، ص99-100.

شقّها العربي الإسلامي ظهر فيه أثرٌ واضحٌ لفكره، ولا شقّها الفرنسي ثقافةً ولغةً ظهر فيه ذلك الأثر كذلك؟ فهل نقول: إنّ من وافقه فكرًا لم يتواصل معه لغةً، ومن تواصل معه لغةً لم يوافقه فكرًا؟ ولعلّه السؤال المتكرّر والمستمر حول تلك الشخصيات العبقرية الواقفة على الحدود بين مساحتين متخاصمتين.

المصادر والمراجع

1. أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ط 2016م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
2. مالك بن نبي، **بين الرّشاد والتّيه**، ط1، 2002م، دار الفكر، دمشق.
3. مالك بن نبي، **دور المسلم في الثّلث الأخير من القرن العشرين**، ط1، سنة 2002م، دار الفكر، دمشق.
4. مالك بن نبي، **رسالة المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين**، ط 2010، دار الفكر، دمشق.
5. مالك بن نبي، **شروط النّهضة**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط4، 1987م، دار الفكر، دمشق.
6. مالك بن نبي، **في مهب المعركة**، ط 2006، دار الفكر، دمشق.
7. مالك بن نبي، **مذكرات شاهد للقرن**، بإشراف: ندوة مالك بن نبي، ط، 2014م، دار الفكر، دمشق.
8. مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع** ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط 2008م، دار الفكر، دمشق.
9. مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط 1986، دار الفكر، دمشق.
10. مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار**، ترجمة: بسام بركة وأحمد شعبو، ط1، 2000م، دار الفكر، دمشق.
11. منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، بمناسبة الذكرى الثلاثين لوفاة المفكّر مالك بن نبي.
12. نورة خالد السعد، **التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي**، ط1، 1997م، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدّة.